الصورة الشعرية وأثرها في الشعراء
مسلم بن الوليد أنموذجاً

م. م. أحمد علي إبراهيم
كلية الإدارة والاقتصاد - الفلوجة / جامعة الأنبار

الصورة الشعرية هي تشكيل فني يعبر فيه الشاعر عن تجربته الإبداعية من خلال الأفكار والعواطف والخيال باسلوب انفعالي مؤثر.

وتعد من أبرز الأدوات الشعرية التي يلجأ إليها الشاعر للتعبير عن رؤيته المتفردة ، وإيصال تجربته إلى المتلقي، فإذا كانت التجربة أصل الإبداع الشعري ، فالصورة هي (الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة)[١] ؛ لأن الصورة ليست زينة زخرفية أو محسنات لفظية ، وإنما هي تجسيد للحالة الداخلية للشاعر ، و (الجوهر الثابت والدائم في الشعر)[٢] .

والذي يميز الشاعر من غيره هو تلك القدرة على التصوير، لأن القصيدة هي صورة أو مجموعة من الصور الجزئية المتآزرة والمؤتلفة فيما بينها ،والتي تمثل في نهاية الأمر الموضوع الشعري أو المعنى العام للقصيدة.

ويتجلى جمال الصورة في خلق علاقات لغوية جديدة بين الكلمات تتجاوز دلالاتها المباشرة ، لأن الشاعر يقوم بإعادة تشكيلها على وفق ما يتصوره من دلالات وأفكار ، لتصبح الصورة (الوعاء الفني للغة الشعرية شكلاً ومضموناً)[٣].

ومن يقرأ ديوان مسلم بن الوليد (ت٢٠٨هـ) يتحسس بتلك القدرة الفائقة في خلق الصور وابتكارها من خلال بث الحركة والحياة في الجمادات ،وتعددت مصادره التي استمد منها صوره الشعرية ، إذ أن الشاعر يستمد صوره من تجربته الكاملة التي تكونت من تفاعل ثقافته التراثية والمعاصرة مع بيئته وظروفه الذاتية.

ويبدو أن أغلب التأثر والتأثير بين الشعراء أو السرقات الشعرية – إذا صح التعبير – هو من الصور الشعرية

وقد عبّر مسلم عن تأثره بالتراث الأدبي ،وصلته الواسعة بموضوعات الشعر العربي وأغراضه من خلال استحضاره الصور الشعرية القديمة وصياغتها صياغة جديدة تتناسب وحضارة العصر العباسي ، فلم يكن مقلداً ، إنما كان يمتلك وعياً إبداعياً أهّله لصياغة الأفكار والصور صياغة فنية جديدة من ذلك قوله :

(البسيط)

قد عَوّدَ الطَّيْرَ عاداتٍ وثقْنَ بها فهُنّ يتْبَعْنَهُ في كُلِّ مُرْتَحَلِ[٤]

إذ أن ملاحقة الطيور والحيوانات فكرة عربية قديمة، صوّرها عدد من الشعراء منهم النابغة الذبياني في قوله:

(الطويل)

إذا ما غَزَوا بالجيشِ حَلَّقَ فَوْقَهُم عصائِب طيرٍ تهْتَدي بعصائب[٥]

أما قول مسلم :

(البسيط)

يكْسُو السُّيوفَ نُفوسَ النَّاكثين به ويجْعلُ الهامَ تيجانَ القنا الذُّبل[٦]

فقد ذكر الآمدي (ت ٣٧٠هـ)[٧] أنه أخذه من قول جرير (ت ١١١هـ) :

(الطويل)

كأنَّ رؤوسَ القومِ فوقَ رِمَاحِنا غَداة الوغى تيجان كِسْرى وقَيْصرا

ووصف أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) بيت مسلم بأنّه من أحسن ما وصف به الرأس إذا حمل على القناة[٨].

أما قوله : –

(الطويل)

إذا مامشَتْ خَافتْ نَميمَة حَلْيها تُداري على المشْي الخلاخيلَ والعِطْرا[٩]

فقد أخذ المعنى من قول ابن أبي زرعة :

(الكامل)

فاسْتَكْتَمَتْ خِلْخَالها ومشتْ تَحْتَ الظّلامِ بِه فمَا نطقا
حتى إذا ريحُ الصَّبا نَسمتْ ملأ العبيرُ بسرِّنا الطُّرقا[١٠]

ومما يدل على ولعه بالصور الشعرية بحثه عنها ليبوح من خلالها بمشاعره وتجاربه فنراه يرسم تمثالاً في التراب لحبيبته في خلوته ،ويشكو ويتضرّع له فيقول :

(الطويل)

وإنّي لأخلو مُذْ فقدْتُك دائباً فانْقُش تِمثالاً لِوْجهك في التُّربِ
فأسقيهِ من عَيْني وأشْكو تَضَرُّعاً إليه بما ألقاهُ من شِدَّةِ الكَرْبِ[١١]

وليس الرسم والخط في التراب من الصور العباسية الجديدة ،وإنما هي من صور البيئة العربية القديمة التي تأثر بها مسلم، فقد قال ذو الرمة (١١٧هـ):

(الطويل)

عشيَّةَ مالِي حيلَةٌ غير أنّني بلقْط الحَصى والخطِّ في الترب مُولَعُ
أخطُّ وأمْحُو الخَطَّ ثم أُعيدُه بكفَّيَّ والغِرْبان في الدَّار وُقَّعُ[١٢]

وجاء في المصون في الأدب للعسكري (ت ٣٨٢هـ) أن قول مسلم :

(الكامل)

تمشِي العِرْضَنَةَ قد تقسَّم طَرْفها وَضَحُ الطَّريق وخوفُ وقّع المُحْصَدِ[١٣]

أخذه من قول الشماخ :

(الطويل)

وتقْسِم طرفَ العينِ نصفاً أمامها ونصفاً تراه خَشية السَّوْط أزورا[١٤]

وتأثير عدد غير قليل من الشعراء بصور مسلم ، ومنهم أبو تمام (٢٣١هـ) الذي يعد من أكثر الشعراء تأثراً بشعر مسلم.

ومن صور مسلم التي جمع فيها بين الحسن والشجاعة قوله :

(البسيط)

تَمْضي المنايا كما تَمْضي أسِنَّتُهُ كأنَّ في سَرْجه بَدْراً وضِرغاما[١٥]

فأخذ أبو تمام المعنى ، وقال :

(الطويل)

فتىً مِنْ يَدَيْهِ البأْسُ يضحَكُ والنَدى وفي سَرْجه بدرٌ وليثٌ غَضَنْفَرُ[١٦]

كما أن قوله :

(الطويل)

تعوَّدَ بسطَ الكَفِّ حتى لو أنّهُ دعاها لقبضٍ لم تُطِعْهُ أنَامِلَهْ[١٧]

مأخوذ من قول مسلم :

(البسيط)

لا يستطيعُ يزيدٌ مِنْ طبيعَتِهِ عن المروءةِ والمعرُوف إجْحاما[١٨]

ويكون الشاعر أحق بالمعنى إذا استطاع أن يخرجه بصوره جديدة تثير خيال المتلقي، إلا أن ما يعاب عليه هو محاولته أخذ المعنى دون أن يضيف شيئاً إليه ، بل على العكس من ذلك نرى أن الصورة القديمة بقيت عالقة في الأذهان ولم يستطع الشاعر اللاحق أن يغيرها ، ومن ذلك قول أبي تمام:

(الطويل)

وقمنا فقلنا بعد أن أفرد الثرى به ما يُقال في السحابةُ تُقلعُ[١٩]

فقد أخذه من قول مسلم :

(الكامل)

فاذْهَبْ كما ذَهبتْ غوادي مُزْنة أثْنَى عليها السَّهلُ والآوعَار[٢٠]

إن الصورة في بيت مسلم تمتلك مساحة أكبر من خيال المتلقي، بينما نجد الصورة في بيت أبي تمام محدودة لأنه (لم يبين بقوله ما يقال في السحابة تقلع معنى يعتمده السامع)[٢١].

ولا يختلف عنه كثيراً قوله :

توفِّيت الآمالُ بعد محمّدٍ وأصبح في شغلٍ عن السَّفْرِ السَّفْرُ[٢٢]

فقد أخذ المعنى من قول مسلم :

(الكامل)

نَفضَتْ بك الآمالُ أحلاسَ المُنى واسْترجَعتْ نزاعها الأمصارُ
سلكتُ بك العربُ السَّبيل إلى العلى حتى إذا سبقَ الرّدى بك حَاروا[٢٣]

أما قوله :

(الوافر)

ثوى بالمشرقين لهم ضجاجٌ أطار قلوبَ أهل المغربينِ[٢٤]

فقد أخذه من قول مسلم :

(البسيط)

لمّا نَزلْتَ على أدْنى بلادِهم ألقى إليك الأقاصِي بالمقاليدِ[٢٥]

إلا أنه لم يضف إلى المعنى شيئاً جديداً.

وأخذ البحتري (ت ٢٨٤هـ) عن مسلم واستطاع ان يخرج المعاني بصور جديدة، كقوله :

(الكامل)

ركبوا الفُرات إلى الفُرات وأمَّلوا جَدْلان يُبدع في السماح ويضربُ[٢٦]

الذي أخذه من قول مسلم :

(الطويل)

ركِبْنا إليه البَحْر في مُؤْخِراتهِ فأوفَتْ بنا مِنْ بعد بحرٍ إلى بحرِ[٢٧]

فقد أتى البحتري بالمعنى الذي جاء به مسلم ، إلا أنه زاد عليه بقوله :

(جذلان يبدع في السماح ويغرب)

أما قوله في وصف المصلوب :

كم عزيز أباده فقد يرْ كب عوداً مُركباً في عود

تحسُدُ الطيرُ فيه ضبع البوادي وهو في غير حالة المحسود[٢٨]

فقد أخذه من قول مسلم:

(البسيط)

وضعْتَهُ حيثُ تُرتابُ الرِّياحُ بهِ وتَحْسُدُ الطَّيْرَ فيه أضْبُعُ البيدِ[٢٩]

إلا أنه زاد عليه زيادة حسنة ، وهي قوله (وهو في غير حالة المحسود)[٣٠] أما قول دعبل الخزاعي (ت ٢٤٦هـ) :

(الكامل)

لا تعْجَبي يا سلْمَ من رجُلٍ ضَحِك المشيبُ برأسِهِ فبكى[٣١]

والذي ملأ الدنيا قديما وحديثا، فقد أخذه من قول مسلم :

(السريع)

مُسْتَعْبِرٌ يَبْكي على دمنةٍ ورأسُهُ يَضْحَكُ فيه المَشِيبُ[٣٢]

أمّا قول مسلم :

(الطويل)

وإنِّي وإشرافي عليكَ بهِمَّتي لكالمُبْتَغى زُبْداً من الماءِ بالمَخْضِ[٣٣]

فقد أخذه أبو عثمان الناجم فقال :

لم تحصل بمخضك الماء إلا زبَداً حين رمت بالجهلِ زُبْدا[٣٤]

أما قول سلم الخاسر (ت ١٨٦هـ) :

(الكامل)

يرمي العجاج بها أغَرَّ محجَّلٌ جعل السيوف مناكحاً وطلاقا[٣٥]

فقد أخذ المعنى من قول مسلم :

(الطويل)

إذا ما نكحْنَا الحربَ بالبيضِ والقَنا جعلْنا المَنايا والدِّماء طَلاقها[٣٦]

إلاّ إنه لم يستطع أن يأتي على المعنى الذي أتى به مسلم ، كما إنّ الصورة عند مسلم أكثر جمالاً ، وأوسع خيالاً.

أما المتنبي (ت ٣٥٤هـ) وهو إمام الشعر في عصره فقد تأثر كثيراً بشعر مسلم ، وأخذ عنه ، إلاّ إنّ هذا التأثّر جاء بصورة مختلفة ، فتارة يتأثر بالمعنى أو الصورة فيأتي بالمعنى نفسه أو يحاول أن يضيف معنى جديداً ولكن بالفاظ مختلفة ، ونراه في أحايين أخرى يتأثر بالصورة واللفظ.

واستطاع أن يخرج بعض الصور بأطر جديدة ، فأصبح هو أحقّ بالمعنى من سابقه ، كقوله المشهور :

تمرُّ بك الابْطالُ كَلْمى هزيمةً ووجْهُك وَضَّاحٌ وثغْرُك باسِمُ[٣٧]

إذ يبدو إنّه تأثّر بقول مسلم :

(البسيط)

يفترُّ عنْد إفْترارِ الحرْبِ مُبْتَسِماً إذا تغيَّر وجْهُ الفارس البَطل[٣٨]

على الرغم من جمال الصورة ووضوحها في بيت مسلم ، فإن المتنبي استطاع أن يخرجها بإطار جديد ، إذ إنّ الصورة في بيت المتنبي تمتلك مساحة خيالية أوسع من خلال الزيادة التي أضفاها الشاعر على المعنى والمتمثلة بلفظتي كلمى وهزيمة.

إنّ سعة خيال المتنبي وامتلاكه لناصية اللغة وثقافته التراثية العالية ، ملّكته هذه الخاصية في اخراج المعنى بهذه الصورة .

ومثله قوله :

تغْدو المنايا فلا تَنْفَكُّ واقِفةً حتى يقولُ لها عودي فتَنْدَفِعُ[٣٩]

إذ إنّه أخذ المعنى من قول مسلم :

(الطويل)

كأنَّ المنايا عالِمات بأمرِهِ إذا خَطَرتْ أرماحُهُ ومناصِلُه[٤٠]

وتبدو من خلاله القدرة التصويرية والخيالة للمتنبي ،وذلك بما أضفاه من بعد وسعة في الخيال عند المتلقي.

وفي قوله :

ما كنتُ مِمنْ يدْخلُ العِشقَ قلبَهُ ولكن من يُبْصر عيونكَ يعشقُ[٤١]

الذي أخذه من قول مسلم :

(الطويل)

وقد كانَ لا يصْبُو ولكنَّ عيْنَه رأتْ مَنْظَراً يُضْني القُلوبَ فرَانَها[٤٢]

تبدو قدرته التصويرية والفنية جليّة وواضحة ، من خلال الصورة الجميلة التي استطاع أن يخرج به المعنى الذي أتى به مسلم ، فامتلك بذلك حق المعنى والصورة ، ولم يستطع من أتى بعده أن يعبّر عن هذا المعنى بمثل هذه الصورة الجميلة .

ولكن على الرغم من هذه القدرة الخيالية والثقافة اللغوية،فإنّه أخفق في بعض صورة ، ولم يستطع أن يضيف شيئاً جديداً على بعض الصور والمعاني التي أتى بها مسلم ، بل على العكس من ذلك نرى إنّ الصورة عند مسلم تمتلك مساحة خيالية أوسع ، فضلا عن جمال المعنى ، واختيار الألفاظ المناسبة.

كقوله :

(البسيط)

قد عوَّدَ الطَّيرَ عاداتٍ وثِقْنَ بِها فَهُنَّ يَتَّبعْنَهُ في كُلِّ مُرْتَحلِ[٤٣]

فإنّ قول المتنبي :

ما به قتلُ أعاديه ولكن يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب[٤٤]

لم يستطع أن يأتي بالمعنى أو الصورة من حيث وضوحها ، أو قيمتها الجمالية والفنية .

ومثله قوله :

(الطويل)

ولو كُنْتُ أدْري كم حياتي قسَمْتُها وصيَّرْتُ ثُلْثَيْها انْتِظارَك فاعْلَمِ[٤٥]

الذي أخذه من قول مسلم :

(البسيط)

لو كان عندك ميثاقٌ يُخَلِّدنا إلى المشيب انْتَظَرْنَا سَلْوة الكِبر[٤٦]

أو قوله :

(الكامل)

وكأنّما كُسِبَ النَّهار به دُجَى ليلٍ وأطلعتِ الرماحُ كواكب[٤٧]

فقد أخذ المعنى من قول مسلم :

(البسيط)

في عسْكَرٍ تُشْرقُ الأرضُ الفَضاءُ بهِ كاللَّيلِ أنْجُمه القُضْبانُ والأسل[٤٨]

إلاّ إنّه لم يستطع أن يأتي بالصورة نفسها أو المعنى نفسه .

---

(١) النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ، دار الثقافة د. ط، ١٩٧٣ ، ص ٤١٧.

(٢)الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، الدكتور جابر عصفور ، دار التنوير، بيروت ، ١٩٨٣ ، الطبعة الثانية ص٧.

(٣) مستقبل الشعر وقضايا نقدية ، الدكتور عناد غزوان ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط١ ، ص١١٦.

(٤) شرح ديوان صريع الغواني – مسلم بن الوليد – تحقيق الدكتور سامي الدهان ، دار المعارف ، مصر ، ص١٢.

(٥) ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق وشرح كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، د. ط. ١٩٦٠ ، ص١٠.

(٦) شرح ديوانه ص١١.

(٧) ينظر : الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ، مصر ، ط٢، ١٩٥٤م، ٦٨.

(٨) ديوان المعاني ، مكتبة الأندلس ، بغداد ، د. ط. ١٣٥٢هـ، ٧١/٢.

(٩) شرح ديوانه ،ص ٤٥.

(١٠) الأشباه والنظائر ، للخالدبن ، تحقيق الدكتور السيد محمد يوسف ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، د. ط. ١٩٦٥م، ٧٤/٢.

(١١) شرح ديوانه ، ص٢٨٨.

(١٢) ديوان شعر ذي الرمّة – تحقيق كارليل هنري ، كلية كمبردج ، د. ط. ١٩١٩م، ص٣٤٢-٣٤٣.

(١٣) ينظر : المصون في الأدب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون – مطبعة الحكومة – الكويت، د. ط. ١٩٦٠م، ص٧٠-٧١.

(١٤) ينظر : ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ، تحقيق: صلاح الدين الهادي ، دار المعارف ، بمصر ، د. ط. ، ١٩٦٨، ص١٣٧.

(١٥)شرح ديوانه ، ص٦٥.

(١٦) ديوان أبي تمام ، شرح وتعليق الدكتور شاهين عطية ، مراجعة بولس الموصلي ،مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط١، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٨م ، ص ١٤٠.

(١٧) ديوان ابي تمام ، ص ٢٠٥.

(١٨) شرح ديوانه ، ص٦٥.

(١٩) ديوان ابي تمام ، ص٣٣٣.

(٢٠) شرح ديوانه ، ص٣١٤.

(٢١) كتاب الصناعتين – أبو هلال العسكري ، تحقيق: علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، الكويت ، الطبعة الثانية ، ص٣٩-٤٠.

(٢٢) ديوان أبي تمام ،ص٣٢٨.

(٢٣) شرح ديوانه ، ص ٣١٤-٣١٥.

(٢٤) ديوان أبي تمام ، ص ٢٨٥.

(٢٥) شرح ديوانه ، ص١٦١.

(٢٦) ينظر :المثل السائر – لأبن الأثير ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده ، د.ط. ، ١٩٣٩م، ٣٨٤/٢.

(٢٧) شرح ديوانه ، ص١١١.

(٢٨) ينظر : المثل السائر ٣١٣/١.

(٢٩) شرح ديوانه ، ص ١٦٥.

(٣٠) ينظر : المثل السائر ٣١٣/١.

(٣١) شعر دعبل بن علي الخزاعي ، صنعة الدكتور عبد الكريم ألأشتر ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق د. ت. د. ط. ص١٦٠.

(٣٢) شرح ديوانه ،ص ٣٠٦.

(٣٣) م.ن ،ص٢٨٦.

(٣٤) ينظر : زهر الآداب وثمر الألباب ، للحصري القيرواني – تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٣م، ١٠٠١/٢.

(٣٥) الأشباه والنظائر

(٣٦) شرح ديوانه ص ٣٢٨.

(٣٧) ديوان المتنبي – شرح الواحدي النيسابوري – تحقيق فريدخ دينزيصي ، طبع برلين ، ١٨٩١م، ص٥٥٢.

(٣٨) شرح ديوانه ص ٩، وينظر الوساطة للقاضي الجرجاني ، تحقيق :محمد ابو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، د.ط. ، ١٩٦٦م ص ٣١٠.

(٣٩) ديوانه ، ص ٤٥٥.

(٤٠) شرح ديوانه ، ص ٣٣٥.

(٤١) ديوان المتنبي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٧٧هـ– ١٩٥٨م، ص٥٦٢.

(٤٢) شرح ديوانه، ص ٣٤٥.

(٤٣) م.ن ،ص. ٣١٥.

(٤٤) ديوانه ،ص ٢١٢.

(٤٥) ديوانه ،ص ٦٥٤.

(٤٦) شرح ديوانه ،ص ٣٢١.

(٤٧) ديوانه ،ص٢٦٢.

(٤٨).شرح ديوانه ،ص٢٥١.